"بين جبل الأوراس والواحات: ظهور وانتشار واختفاء الجماعات الاباضية بالزاب (ق 8- 9م/ ق 2- 3هـ)" – علاوة عمارة

ترجمة: أ/ عبد القادر مباركية.جامعة 08 ماي 1945 قالمة.

Abstract

After the widespread among the Pastoralist communities in Tripoli, Ibadism spread rapidly in the Aures and the oasis which were situated in the north of the Sahara. The Hawwâra, BaniBirzâl the Miknasa and BaniKimlân adopted this religious current, giving a birth of the Ibadit province called by the Arabic texts Zab. Nomadism, which was the dominated lifestyle in this area, favored the spread of this religious current and led to the integration of rural communities in the territory of the Imamate of Tahart. After a half century, however, the Ibadit communities 'Zab' reorganized into two rival branches the Wahbisme and Nukkârisme. This new situation coincided with the intensification of the propaganda activity of both Shi'ite and Sunni Maliki in the urban centers of Zab provoked a military response from Nukkârisme under the command of Abu Yazid. Threatened by the dynasties of the northern Maghreb, Ibadi communities were gradually pushed to the oases of the Sahara or disappeared from the stage. This loss of land was accelerated after the arrival of the BanuHilal, causing the formation of a new socio-religious map in the

region.

إذا كانت التجربة السياسية للإباضية ببلاد المغرب قد شكلت موضوعا للعديد من الأعمال ذات القيم المتفاوتة (زروقي، 1987. Rebstok, 1983. Shwartez, 1983. بحاز، 1985)، فإنه يوجد عدد قليل من الدراسات حول التجمعات الإباضية المستقرّة بالمناطق الريفية للمغرب الأوسط. إذن من اللازم هنا أن نطرح إشكال عن حضورهم في هذه المناطق، لقد انطلق لوفيتشكي في هذا التخمين بدراسة التوزع الجغرافي للإباضية بالمغرب الوسيط، وعلى الخصوص في تونس Lewicki,1957. Lewicki, 1958 (b) Lewicki, 1958 [.(a).] مجددا للتيارات التأسيسية للاباضية (Lewicki, 1958 (b)). وقد ركز كذلك على واحدة من تياراتها المعارضة للوهبية- المذهب الرسمي الذي دافع عنه رستميّي تاهرت- في مقاله الذي خصّه حول بني مسالتة المملكة المنشقّة (Lewicki,1968). إن أغلب الدّراسات المنجزة منذ ذلك الحين ساهمت بصورة واسعة في تحسين معارفنا حول التوطين الاباضي في بعض مناطق بلاد المغرب خاصة جبل نفوسة، الجنوب التونسي، ومنطقة ورقلة (Lewicki, 1957. Ib, 1958. مزهودي، 2006. باجية Prevost, 2006. Ib, 1976. 2007. Ib, 2008). كما شكل إباضيّي الصحراء الليبية كذلك موضوع دراسة (Thiry,1995). في حين أن الزاب وهو مجال واسع يمتد من الأوراس إلى بداية المناطق الواحية بقي غير معروف في الدراسات الحديثة. من

بين الأسباب الرئيسية لتشكّل هذه الصورة الهامشية ضياع التراث المكتوب للنكاريّين وهو المذهب الغالب محليّا. من اللازم إذن إجراء بحث حول التوطين الإباضي في هذا الفضاء من البداية الأولى لانتشار المذاهب الإباضية إلى غاية انتشار المذهب المالكي بالمنطقة الذي حدث أساسا خلال القرنين 6-7هـ/12-13م. الكثير من الأسئلة وجب طرحها من قبيل: متى وكيف أصبح الزاب ذو أغلبية إباضية؟ ماهي مراحل ذلك؟ هل يمكننا التعرف على تركيبة هذه التجمعات الاباضية؟ ما موقع هذه المنطقة ضمن مواجهة المراقبة المتقدّمة للدول القائمة شمال بلاد المغرب؟ في النهاية ما هي الظروف التي انحسرت فيها الاباضية بهذه المنطقة؟ إن تتبع هذه المسيرة ليست مهمة سهلة بسبب أن الجماعات الإباضية المختلفة بالزاب لم تترك آثارا مكتوبة باستثناء التفسير القرآني الذي ألّفه هود بن محكم الهواري، لابد إذن أن نبحث عن المعلومات في النصوص الأخرى مع الاعتماد على الطوبونيميا الحديثة وعلى المعطيات الأثرية.

المصادر

إن النصوص الإخبارية الاباضية-الوهبية التي سنستخدمها تُصنّف في إطار أدب قداسي نهضوي يهدف: "بالحاح لانتاج ماضي مقنع يمنح معنى للحاضر المتشكّل"(Bernard Guenée cité dans Borrut, 2011 : 18). في المقابل لا يتقبل كُتّاب الفرع الإباضي الوهبي الفروع الأخرى المنتسبة للاباضية. أبو زكرياء الوارجلاني (ت بعد 474هـ/1081م)، أبو الربيع الوسياني (ت بعد 557هـ/1161م)، أبو العباس أحمد بن عبد الله

الفرسطائي (ت 504هـ/1110م)، وكذلك الدرجيني (ت 670هـ/1271م) كلهم ألّفوا كتب جامعة للتراجم تتعلق بالمناطق الرئيسية الآهلة بأتباع مذهبهم مثل جبل نفوسة، جربة، الجريد، أريغ ووارجلان (عمارة، 2008: 31-40). بينما لا يوجد أيّ أثر لرواية بيوغرافية تتعلق بالزاب، باستثناء روايتين نُقلتا عبر أشخاص ينتمون إلى فرع بني واسين المستقرّين في قرية محصّنة تقع في أقصى جنوب الزاب. الأمر نفسه بالنسبة للنصوص الوصفية التي ألّفها غير الإباضية، في أغلبها سنيّة وشيعيّة، فهي تتضمن تعدادا للقبائل الإباضية بالزاب دون أي تحديد لتوزّعها الجغرافي. بالإضافة إلى أن هذه الأوصاف تصبح قليلة انطلاقا من منتصف القرن 6هـ/12م، وذلك بعد خضوع طرق الاتصال لمراقبة وسيطرة القبائل الهلالية.

تبقى النصوص الاسماعيلية والنصوص المتعلقة بالفاطميين كبقية النصوص الأخرى ذات أهمية بالغة بالنسبة لهاته الدراسة. لقد لعبت منطقة الزاب دور هام جدّا في تاريخ المغرب تحت حكم الفاطميّين حتى قبل تأسيس الخلافة بالمهدية حيث استقر مبعوثون إسماعيليّون شرق جبل الأوراس في عمق الجماعات الإباضية بهوارة ومزاتة. ثم إنّ هذه النصوص تتعلق بالحملات التي قام بها الفاطميون للسيطرة على الزاب وكذلك السيطرة على طريقين محوريّين نحو المغرب الأقصى. لقد شكّل انتقال سكان طبنة نحو المذهب الإسماعيلي (Ibn al-Ḥaytham,2001:64.) وتأسيس المسيلة من قبل الفاطميين بداية دخول هذه المنطقة السهلية ضمن هذا التيار. وهنا تصبح المعلومات عن الزاب متوفرة، كما أن هذه المنطقة شكلت ولسنوات طويلة مسرحا للمعارك

بين الجنود الفاطميين ضد المعارضين الاباضيين، خاصة بالأوراس. بفضل الأوصاف الدقيقة للمتابعة التي قام بها الخليفة المنصور ضد القائد الاباضي أبي يزيد فإن معارفنا بالتوطين والتاريخ الاباضي تعتبر مؤسسة.

بعد القرن الفاطمي تصبح المعلومات عن الزاب قليلة وهذا ما يلاحظ على النصوص الاباضية الوهبية. لا نملك إلا بعض القطع المبعثرة انتقلت عبر عدد قليل من الرحّالة الذين أقاموا بالمنطقة مثل ابن الحاج النميري الذي رافق السلطان المريني أبو عنان أو ابن خلدون الذي أمضى وقتا ببسكرة تحت حكم بني مزني.

من الزاب إلى الزيبان

قبل التعامل مع إشكالية الإباضية بالزاب لابد علينا أولا تحديد هذا المجال مثلما صوره المؤلفون العرب القروسطيين. لقد تم استعمال لفظة الزاب من قبل المؤلفين العرب لتحديد مقاطعة واسعة –في الفترة الإسلامية الأولى– تمتد من تبسة إلى هاز غرب المسيلة. يبقى أصل هذه الكلمة غير محدّد، لكننا نعلم أن واحدة من المدن الكبرى بالزاب كانت تحمل اسم زابي جوستينيانا (Zabi Justiniana) وتقع قرب المسيلة. إن الإشارات الأولى للزاب تتركنا نشعر بأن مجال هذه المقاطعة كان في غاية الأهمية في بداية العصر الوسيط كما في نهايته. كما أن اليعقوبي (130:1861) يعتبر الزاب كبلد واسع عاصمته طبنة ويتضمن مدن كثيرة مثل باغاي وبلزمة، كما أن

التضاريس الأكثر حضورا في هذا الفضاء وقد تحدث عنها المؤلفون العرب كثيرا هي جبل الأوراس. إن قراءة هذه النصوص الجغرافية تسمح لنا بتحديد مقاطعة الزاب بين نواحي تبسة وغرب المسيلة مع جبل الأوراس، ومن الجنوب تحدد بالواحات الواقعة بعد بسكرة على الطريق المؤدية إلى أريغ وواد سوف. وبذلك يكون مجال هذه المقاطعة محدّدا طبوغرافيا، فهي محددة شمالا بجبل الأوراس وفي الجنوب برمال الصحراء ومحاطة بالهضاب العليا الصحراوية وتشكل بذلك حوض يتميز بحضور عدد من الشطوط خاصة شط الحضنة (Birot, 1953:401-405).

لقد عرف الزاب تطورا إقليميّا هاما، فبعد انقسامه إلى جزئين خلال القرن 6هـ/12م –الزاب الأعلى والزاب الأدنى- (ابن عذاري، 1980: 5/1)، فإن ناحية الحضنة، ضمن الزاب الأعلى، انفصلت عن المقاطعة لتشكل كيانا جغرافيا وبشريا منفصلا. لم يعد الزاب خلال القرن8هـ/14م يتضمن سوى ناحية السهوب المشغولة بواحات النخيل يعني بسكرة ونواحيها. هذه الناحية تنقسم إلى ثلاث مناطق: الزاب الغربي مركزه طولقة، الزاب الأوسط عاصمته بسكرة، والزاب الشرقي مركزه بادس (ابن خلدون، دت: 405/6. Lewicki, 1978: 22). انطلاقا من هذه الفترة عوضت كلمة زيبان (جمع كلمة زاب) كلمة زاب لتحديد المناطق الثلاثة لهذه الناحية. خلال القرن 8هـ/14م كانت مناطق الزاب المعروفة جيدا خاصة: بسكرة، طولقة، الدوسن، مليان، لميودة، بادس (بادياس)، جمونة، مليلي،

تهودة وملشون (ابن خلدون، دت: 405/6). ومن المؤكد أن شساعة مجال الزاب الكبير خلال القرون الأولى ساهمت في نشر تعاليم الفرع الثالث للإسلام "الإباضية".

جذور الاباضية في الزاب:

بعد تهدئة بلاد المغرب من قبل الحكام الأمويين المستقرين بالقيروان أخذت بلاد البربر تعرف نهضة عامة تبعا لنشاط دعوي مخطط له من قبل دعاة الصفرية والاباضية. لقد شكلت الجماعات الرعوية التي تنتجع في السهول والهضاب العليا الممثلين الرئيسيين لهذا الاتجاه الجديد الثوري الموجّه ضد السياسة الأموية. هؤلاء الرحل وأشباه الرحل الذي يشغلون الفضاء الجغرافي الممتد من برقة إلى جنوب تلمسان يتشكلون غالبا من زناتة (ازناتن)، ولواتة (إلواتن)، وهوارة وزواغة (ابن عذاري، 1980: 1/8-24). دون الدفاع عن الأطروحة التي تخلق رابط بين المذهب الخارجي والدوناتي (Gautier,1928:260-262. Bulliet,1981:113-115.Savage,1997)، فإنه من الواضح أن إباضية بلاد المغرب قد وجدت صدى إيجابيا في نواحي ترسّخت فيها التقاليد المسيحية الدوناتية وأكدتها الاكتشافات الأثرية.

رغم أن النصوص الاباضية المتأخرة قد جعلت من سلمة بن سعيد أول داعية للحركة ببلاد المغرب (الدرجيني، 1974: 11/1) فإنه من الصعب

وعلى وجه الدقة معرفة تاريخ ومكان أنشطته، حتى وإن كانت الأحداث التي وقعت بطرابلس تترك لنا إمكانية الاعتقاد بأن نجاح أفكار المساواة كانت في البداية عند نفوسة ولواتة بهذه الناحية، قبل نجاحها عند الجماعات الرعوية بالظهير التونسي وبالهضاب العليا للمغرب الأوسط. وعلى شاكلة الطالبي (1982:31) يعتقد العديد من الباحثين أن بداية انتشار الاباضية ببلاد المغرب تعود إلى القرن 1هـ/7م. رغم أن الزاب مجال مزود بعدة مراكز حضرية فإنه يعتبر كذلك فضاء واسع للبدو، وكما لاحظه جوتيي (1927:270) Gautier يوجد رابط دقيق بين انتشار الخوارج والرحل وهم الذين يفضلون الانتقال والانتشار الكبير لهذا التيار. زناتة ولواتة (لغاتة/ايلقاتن) هما الجماعتين الكبيرتين بالزاب لكنهما توقفتا عن الانتجاع بين العديد من النواحي بالصحراء الليبية، في جنوب إفريقية، وفي المغرب الأوسط. هذا الأسلوب الحياتي ربط هذه التجمعات بصنف البتر في التقسيم الكلاسيكي للمؤلفين القروسطيين (مفاخر البربر، 2005: 158)، أي الرحل رعاة الإبل[1]. أحيانا لا تُظهر نصوصنا الإشارات الأولى للاباضيين بالزاب إلا في منتصف القرن 2هـ/8م. يذكر ابن عذراي المراكشي (1980: 75/1) وهو أكبر مؤرخ جمّاعة بالمغرب الوسيط مراحل التحالف الاباضي-الصفري الذي تمّ تحت قيادة إمام تاهرت عبد الرحمان بن رستم والذي فشل في مواجهة حاكم

(1)/ إشكالية الثنائية بتر/برانس تمت دراستها بطريقة معمقة من قبل عدة باحثين ينظر:
(Bulliet, 1981 : 104-116 ; Modéran, 2003 : 685-808).

القيروان، عمرو بن حفص. بالنسبة لهذه الفترة، لا يوجد نص يمكنه أن يؤكد تجذر الاباضية بالزاب وهو الإقليم الخاضع لرقابة حاكم القيروان من مدينة طبنة المحصنة (ابن خرداذبة، 1886:87). غير أنه وعلى بعد 25 كم من بسكرة في طريق طولقة (Cambuzat,1986:2/61) نسجل في الزاب حضور لطوبونيم "مليلي" يعرف كذلك في العصر الوسيط باسم "مليلة" يمكنه أن يشكل شاهدا على بداية انتشار الاباضية بالزاب. في الواقع هذا الاسم يعني فرع من هوارة الذي مثل اليد القوية للإمام الاباضي بطرابلس أبي حاتم الملزوزي (الوارجلاني، 1979: 52).

إن اهتمام حكام القيروان بالزاب يوحي جيدا بأن هذه المقاطعة لها أهمية كبيرة في استمرار الولاية الأموية ثم العباسية وأغلب حكام هذه المقاطعة وصلوا بعد ذلك إلى حكم ولاية إفريقية (خليفة، 2009: 205) عبر حملات تهدئة تم تنظيمها دوريا. ثم إن رواية تنسب لابن القطان مؤرخ مراكش ونقلها ابن عذاري (1980: 107/1) تحدثت عن حملة بقيادة عيسى بن ريعان الأزدي ضد قبائل لواتة، زواغة ومكناسة على الحدود الشرقية للزاب في سنة 224هـ/838م، وهي التجمعات نفسها التي ذكرت لاحقا على أنها إباضية المذهب.

إن الروايات التي جمعها ابن سلاّم اللواتي (ت نحو 274هـ/887م) لا تمنح أية مكانة لإباضية الزاب لكنها تشير إلى هوارة وزناتة التي احترفت

البداوة في المجال الممتد من طرابلس إلى الزاب. النص نفسه يسمح لنا بالاعتقاد أن الدعاة الأوائل كانوا عربا قدموا من المشرق وتفرغوا لتقديم تعليم عقائدي للبربر (ابن سلاّم، 1985: 142-143، 149). كذلك فإن رواية ابن الصغير حول الأئمة الرستميين لا تذكر جبل الأوراس ولا الزاب إلا في الحديث عن هود بن محكم الهواري الذي دُعي لشغل منصب قاضي بتاهرت (ابن الصغير، 1984: 49). لكن النص يتحدث عن انتجاع الجماعات الإباضية بالزاب التي تصل إلى غاية ناحية تاهرت خلال فصل الربيع فقبائل مزاتة ومكناسة وهوارة ترتحل بحثا عن المراعي لقطعانهم (ابن الصغير، 1984: 41).

تعتبر أول صورة حول الوضعية الدينية في الزاب من إنجاز الرحالة الشيعي اليعقوبي (توفي نحو 284هـ/897م)، الذي زار بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، أي فترة قليلة قبل تأسيس الخلافة الفاطمية. في كتابه البلدان، ذكر التجمعات الحضرية والريفية بالزاب خاصة الأفارقة والروم المستقرين في المراكز الحضرية الكبرى مثل طبنة (Thubunae)، باغاي (Bagai)، بسكرة (Vescera) وواحاتها (اليعقوبي، 1992: 350-351). لكن بالنسبة لأرياف الزاب فقد اتبعت اتجاها دينيا آخرا الذي أشار إليها مؤلفنا بلفظة "شراة"[2] أو يسميهم بدقة

(2)/كلمة شراة تستعملها النصوص للاشارة الى الخوارج من الممكن تنوع مفسر. واحدة من المراحل التي عرفها الفكر السياسي الإباضي تسمى الشراء: تعني التضحية –حرفيا بيع النفس– التي لابد أن يتحلى بها أنصار الحركة للدفاع عن المؤمنين ضد الحكم الظالم (الدرجيني، 1974: 364/2. مجموع، 2008: 551/1-552).

إباضيين. بالنسبة لهاز وهي مدينة تقع غرب المسيلة يقول اليعقوبي أن بني دمر، تجمع يعتبر زناتي، كانوا شراة يسيرهم قائد يدعى مصادف بن جرتيل (اليعقوبي، 1992: 351). يوحي هذا الاسم بأن الهوية الاسمية لهؤلاء البربر الاباضيين بالحضنة لم تتعرّب بعد. نعلم كذلك أن بني دمّر يمارسون الزراعة وتربية الماشية. إن الحضور الاباضي في الزاب يطبعه حضور ملحوظ من قبل هوارة وبني زنداج وبني برزال وهم الذين ذكرهم اليعقوبي في جبل الأوراس ونواحيها الغربية بالقرب من مقرة. في الأخير يسمح لنا نص اليعقوبي بتحديد تواجد إباضي بالأوراس ممثلا بالمستقرين أو على الأقل بأشباه الرحل من هوارة (اليعقوبي، 1992: 351). وبذلك اليعقوبي كأغلبية المؤلفين غير الاباضيين لم يميز بين مختلف إتجاهات الاباضية الموجودة بالزاب.

ثورة الزاب الاباضي (4هـ/10م)

معلوماتنا لا بأس بها عن الزاب خلال القرن 4هـ/10م بفضل إسهامات النصوص الإسماعيلية، النصوص الاباضية الوهبية، والنصوص السنية. يسوق لنا القاضي النعمان (ت 363هـ/973م) شهادة مهمة في كتابه افتتاح الدعوة الذي ألفه خلال سنة 346هـ/975م، وفيه كتب أن بني عفنيت، فرع من كتامة، إباضية منذ القديم ما يؤكد اختراق هذا التيار للسفوح الجبلية شمال جبال الأوراس (القاضي النعمان، 1986: 111). لكن معطيات

القاضي عياض توثق كذلك حضور تواجد عربي ليس إباضي في المراكز الحضرية الكبرى بالزاب مثل طبنة وباغاي (في السفوح الشمالية للأوراس)، ولانتشار الاسماعيلية في شرق الأوراس نتيجة للدعوة الممارسة من قبل داعيتين قدما من المشرق لأكثر من قرن سابق لتأسيس الخلافة الفاطمية: أبو سفيان والحلواني (القاضي النعمان، 1986: 26-29).

تحت حكم المهدي حاول الفاطميون فرض سلطتهم على الاباضية في الأوراس دون الوصول إليهم كثيرا. مباشرة بعد وصول المهدي إلى ايقجان في سنة 297هـ/909م، فقد عيّن يحي بن سليمان الملوشي حاكما للزاب وكلف الداعي الكبير أبي عبد الله الداعي لتهدئة ثورات هذه المقاطعة التي تسبب فيها المعارضين الاباضية الزناتيين موجهين بقائدهم محمد بن خزر. لقد أكمل مهمته بنجاح كبير فقضى على الثورة ونقل حركة القائد الاباضي نحو الصحراء(ابن حماد، 1984: 23. إدريس عماد الدين، 1981: 26-27). هذا النجاح العسكري لم يمنع الفاطميين من مواجهة صعوبات كبيرة لمراقبة مجال تمت استعادته. كذلك في سنة 310هـ/922م القائد الفاطمي أبو معلوم فحلون الكتامي تم قتله في الأوراس مع جنوده بعد أن هاجمه السكان (ابن عذاري، 1990: 187/1). كان أغلبية زناتة الزاب إباضية وحاولوا التحكم في المقاطعة ومطاردة الحكام الفاطميين. لقد سير الخليفة المهدي شخصيا حملة تهدئة استهدفت بني برزال ومختلف التجمعات الاباضية بالزاب الغربي. ولضمان هدوء قبائل مزاتة وهوارة وصدينة وعجيسة

الإباضية فقد قام بِرَهْن أعيانهم وثبتهم بالمهدية. من باب الانتقام ففي القسم الغربي للأوراس الاباضيون بني كملان، مزاتة،و كيانة عوقبوا بقسوة كبيرة وتم تهديم حصنهم قلعة عقار (إدريس عماد الدين، 1981: 51-52). ونظرا لصعوبات مراقبة هذا المجال فقد قرر الخليفة الفاطمي تأسيس مدينة محصنة هي المسيلة على إقليم بني برزال وبني كملان الاباضيين بهدف إعاقة تقدم زناتة (ابن حماد، 1984: 24. إدريس عماد الدين، 1981: 53. ابن عذاري، 1990: 190/1). هذه الحملة كانت لها نتيجة تتمثل في بداية نفي زناتة الاباضية نحو المناطق الواحية. لكن أربع سنوات بعد ذلك تقريبا في سنة 317هـ/929م تمكن قائد زناتة الإباضي القوي محمد بن خزر وبدعم من أمويي قرطبة من السيطرة ولبضعة أشهر على قسم كبير من الزاب (ابن حيان، 1979: 258. ابن عذاري، 1990: 194/1)، لكن هذه الجماعات تعرضت للهزائم في ضواحي بسكرة أمام فرق من الجيش الفاطمي يقودها مسعود بن غالب (إدريس عماد الدين، 1981: 70). هذه الهزيمة الجديدة تسببت في نزوح زناتة ومغراوة نحو المغرب الأوسط وبعض العناصر عبرت البحر واتجهت للاستقرار في الأندلس (ابن حيان، 1979: 304).

لقد تحسنت معارفنا حول التواجد الإباضي بالزاب انطلاقا من النصف الأول من القرن 4هـ/10م. وبتتبع مراحل الثورة التي قام بها القائد الإباضي أبو يزيد مخلد بن كيداد يمكننا الحصول على تصور واضح حول التوزع

الجغرافي الاباضي النكاري بالزاب. لقد شكّل أصيل قسطيلية أبو يزيد واحدا من قادة الجماعة الاباضية النكارية ببلاد المغرب، فبعد خسارته لأول معركة عسكرية ضد حاكم تقيوس فقد تم تحريره من قبل أتباعه ووصل إلى مرتفعات الأوراس وتم استقباله من قبل بني كملان الفرع الأكثر قوة من هوارة. يسمح الطوبونيمين الحاليين وهما سريانة ومستاوة اللذان ذكرا في المصادر الوسيطة ويقعان في الجبل المطل على المدينة الصغيرة مروانة بتحديد بانتشار الجماعات الاباضية النكارية في القسم الغربي للأوراس المطل على مدينة طبنة (Tubunae في العصر القديم). مثل أغلبية الأعمال العسكرية التي قامت بها الجماعات الرعوية ببلاد المغرب ضد الفاطميين فقد ربط أبو يزيد أنشطته مع الخلافة بقرطبة[3] ليقود ما يسمى بجهاد الشيعة الزنادقة (ابن حيان، 1979: 258). بالنسبة لثورة أبي يزيد (332-336هـ/943-947م) لن تتكرر تفاصيلها هنا (Halm,1996: 310-325)، سأكتفي بالاشارة إلى بعض الأحداث التي لها علاقة مع السكان الاباضيين بالزاب. إن اثنيات وألقاب مناصري القائد الاباضي النكاري تجعلنا نقول أن الجماعات الاباضية كانت منتشرة على طول الأوراس من ناحية تبسة إلى غاية غرب المسيلة. من هذه الجماعات نجد هوراة بناحية باغاي منها اثنين كانا قائدين ضمن جيش أبي يزيد (منصور بن منصور الهواري وأحمد

(3)/ أرسل أبو يزيد ابنه أيوب إلى قرطبة لطلب المساعدة من الخليفة المنصور لكن وأثناء عودته وقع في كمين من قبل حاكم تاهرت الفاطمي.

الهواري). في ناحية بسكرة ينتجع مربوا الجمال من لواتة ومزتة[4]، الذين شاركوا كذلك في الثورة بقيادة يدراس المزاتي ورقّو المزاتي. لقد استقرت مكناسة بالمنطقة الجبلية الواقعة شرق بسكرة. في الزاب الغربي استقرت هناك تجمعات عديدة: مستاوة، بنو كملان وهوارة-سريانة في الناحية الحالية لمروانة. قليلا نحو الغرب بين المسيلة وبرج الغدير سكن بنو برزال وعجيسة مجموعة من الحصون والقرى الصغيرة بجبل سالات "جبل محمي جدا تعيش فيه عدة قبائل بربرية مذهبها خوارج إباضية" (إدريس عماد الدين، 1981: 207-208). وفي سهول الزاب الغربي تنتجع زناتة التي تتبع مذهبا اباضيا لا نعرفه على وجه الدقة (إدريس عماد الدين، 1981: 80-112). إن غلبة النكارية بالزاب مشهود له برسالة الخليفة الفاطمي القائم التي استنسخها إدريس عماد الدين (1981: 112)، تتعلق بالزامية المشاركة في الجهاد ضد الخوارج النكارية: "يجب إعلان الحرب ضد سكان الأوراس إنهم مذنبون، كفار وزنادقة".

لكن لا يجب أن نعتقد أن كل الاباضيّين الذين شاركوا في ثورة أبي يزيد يمثلون قسما من النكاريّين لأنه قد تلقى الدعم من الإباضية الوهبية مثل بني واسين الذين سكنوا قسطيلية وأقصى جنوب مقاطعة الزاب. وقد عاد أشخاص من هذه المناطق إلى القوات الفاطمية بعد انسحاب أبي يزيد من

(4)/ ذكر أبو زكرياء الوارجلاني (1979: 120) زيارة فضل ابن أبي يزيد إلى مجموعات مزاتة المنتجعة (الضعائن).

القيروان (إدريس عماد الدين، 1981: 149). إن أغلبية زناتة الزاب الغربي إباضية المذهب وقائدهم محمد بن خزر المغراوي الذي قاتل الفاطميين أعلن من واحة الأغواط استسلامه للقائد المنصور. لكن واحد من أبنائه، تعتبره النصوص الاسماعيلية خارجي إباضي بامتياز، يظهر أنه "معبد" قرر الاستراحة مع والده وأن يعلن الحرب ضد الفاطميين بجانب فضل ابن أبي يزيد (إدريس عماد الدين، 1981: 283). في الزاب الغربي وعلى وجه الدقة في واحات بنطيوس الواقعة غرب بسكرة تستقر هناك سدراتة الإباضية التي تعرضت للمذابح من قبل الخليفة المنصور عندما تقدم في متابعة أبي يزيد (ابن حماد، 1984: 41).

النصوص ليست صريحة حول التنظيم الهيكلي للاباضية النكارية بالزاب.نعلم أن هوارة الأوراس كان لها قاضي فليح بن محمد الهواري (إدريس عماد الدين، 1981: 137.). ونعلم كذلك أن هذه الجماعات كانت تسيّر من قبل مجلس أعيان (وجوه) من الممكن أن يتوافق مع تجمعات الجماعات البربرية الريفية. بما أن كل التجمعات الاباضية الزابية المذكورة في النصوص رعوية بالجنوب وفلاحية داخل الجبل مثل هوارة-سريانة التي مارست تربية المواشي (إدريس عماد الدين، 1981: 149). لكن من خلال تاريخ ابن حماد الصنهاجي يمكننا الحصول على فكرة حول التركيبة العامة للمذهب الاباضي النكاري الذي كان له قائد روحي هو أبو عمار عبد الحميد بن عبد الله الحجري وقائد سياسي وعسكري هو أبو يزيد مخلد بن كيداد. هذا الأخير

حمل لقب شيخ المسلمين ويساعده مجلس عزابة (ابن حماد، 1984: 30-31).

في الزاب الاباضي استقر الأتباع عموما في قرى محصنة تسميها النصوص "قلعة"، حصن أو قصر. والمنطقة أكثرا توصيفا هي جبل سالات الذي تحصن به أبي يزيد قبل وفاته. لقد كتب أن بني برزال وهوارة ومصراتة وعجيسة سكنوا قلاع الحجارة، شاكر وكيانة (ابن حماد، 1984: 41-43. إدريس عماد الدين، 1981: 223-232). كذلك ذكر حصن "تامقرا" يقع شرق الزاب وتسكنه مكناسة (إدريس عماد الدين، 1981: 209).

إن هزيمة أبي يزيد وتراجعه نحو قلعة كيانة في سنة 336هـ/947مكانت لها نتيجة مميتة بالنسبة للتجمعات الاباضية بالزاب التي عانت من مجموعة حملات عقابيةفاطمية. رغم محاولات فضل ابن أبي يزيد ومعاد ابن محمد بن خزر لاستعادة السيطرة على المراكز الحضرية الكبيرة بالزاب فقد توصل الفاطميون في الأخير لوضع حد للتمردات الاباضية ولتفريق التجمعات الاباضية النكاريّة بعد حملات عديدة انطلقت من صبرة المنصورية. كذلك عانت لواتة من القتل والمتابعة لغاية السهول الواقعة جنوب تاهرت (إدريس عماد الدين، 1981: 287-288). تعرض بني واسين بقسطيلية ومكناسة بالزاب الشرقي للطرد من حصونهم خاصة في مواس وهي قرية صغيرة محصنة.

هؤلاء المكناسيون كانوا تحت قيادة بشر بن منصور المكناسي وهو مناصر متحمس للمذهب الاباضي النكاري (إدريس عماد الدين، 1981: 301-302). وأخيرا بعطيط بن يعلى بن بعطيط الزناتي حليف الفاطميين تمكن من القضاء على فضل آخر أبناء أبي يزيد قرب باغاي واضعا النهاية للتمرد الإباضي النكاري (ابن حماد، 1984: 46. إدريس عماد الدين، 1981: 310-311).

قبل الانتقال إلى مصر أرسل الخليفة المعز بلكين بن زيري في حملة بالأوراس لتأديب الاباضيين. وتمكن قائد صنهاجة من تهدئة المنطقة متسببا في هجرة جماعية للاباضيين من جبل الأوراس نحو جنوب الزاب ونحو المناطق الواحية. والبعض منهم وصل إلى جنوب الصحراء الكبرى (ابن حماد، 1984: 48-49).

تراجع الاباضية وبداية انتشار المذهب المالكي:

من خلال النصوص الجغرافية يمكننا أن نلاحظ بقاء الاباضية في العديد من مناطق الزاب رغم الحملات القمعية الفاطمية. ابن حوقل (توفي نحو 367هـ/977م) لما وصف الطريق الرابط بين القيروان وفاس مرورا بالزاب ذكر هوارة، بنو برزال، بنو زنداج، ومزاتة لكن لم يحدد انتماءهم المذهبي. لقد ضمّن كلامه بوصفهم أنهم أناس سيئين وأنهم يدفعون ضريبة مالية "خراج" (ابن حوقل، 1996: 84-85). ولما وصف الطريق الذي يربط إفريقية بالمغرب الأقصى قام باحصاء مدن وواحات الزاب دون الحديث عن

السكان. لكن بالنسبة لجبل نفوسة فقد قال: "مدن الخوارج هي نفزاوة، بادس وبسكرة" (ابن حوقل، 1996: 93). يظهر إذن أن الزاب الشرقي مثل الزاب الغربي لم يضيع خلال هذه الفترة هويته الاباضية مثلما حدث مع مدن ونواحي أخرى أشار إليها ابن حوقل مثل قسطيلية، قفصة، نفطة، الحامة، سوماتة، بشرى وجبل نفوسة.

سجلت سنة 358هـ/969م هذه المرة آخر ثورة إباضية وهبية كبيرة في الزاب. لشرح هذه الحركة التي قادها أبو نوح وأبو خزر وهما عالمان ينتميان إلى بني واسين بالجريد فقد تحدثت النصوص الاباضية الوهبية سلفا عن إعدام الفاطميين للعالم الإباضي أبي القاسم يزيد بن مخلد (الوارجلاني، 1984: 142-143. الدرجيني، 1:1974/126-135). إضافة إلى جزء من مدينة الحامة بالجريد فإن الثورة مست كذلك مدينة باغاي الواقعة في السفوح الشمالية لمرتفعات الأوراس وفاز بها واحدا من شيوخ زناتة الزاب وهو المنتصر بن خزرون. بعد تعبئة إباضية الزاب، ورقلة، الجريد وأريغ، حاصر المتمردون مدينة باغاي ولم ينجح حاكمها في هزيمتهم بسبب الظروف السيئة (Prevost, 2006:206).

سنتان بعد ذلك أصبح الزاب من جديد مسرحا للخروج على الفاطميين لأن حاكم المسيلة جعفر بن علي بن حمدون عبّأ بني برزال الاباضية ضد الخليفة المعز. وإعلانا لولائهم لخلافة قرطبة فقد أقدم بني حمدون على وضع

نهاية لسلطة الفاطميين بالزاب الغربي وقضوا على جند صنهاجة. لكن الزيري بلكين تمكن من القضاء على بني حمدون وحلفائهم بني برزال مما تسبب في انتقالهم بقوة نحو الأندلس وهناك دخلوا في خدمة المنصور بن أبي عامر وأسسوا بعد ذلك الامارة البرزالية بقرمونة (عبد الله بن بلكين، 1995: 91. ابن حماد، 2005: 135). مع الهجرة الجماعية لبني برزال عرف السكان الاباضيون بالزاب تراجع حقيقي خاصة من محيط مدينة المسيلة[5]. في سنة 361هـ/971م قتل بلكين بن زيري وشرّد زناتة في الزاب وفي ناحية تاهرت متسببا في هجرة جماعية نحو سواحل الأطلسي، جنوب المغرب الأقصى وخاصة نحو واحات الصحراء (مفاخر البربر، 2005: 97). ثار محمد بن خزر المغراوي قائد زناتة القوي هو الآخر ضد الفاطميين وقد اعترف بسيادة الخليفة الأموي المستنصر وأسس مملكة في المجالات الآهلة بزناتة (ابن الخطيب، 1964: 153-154). إن الولاء السياسي للخليفة الأموي بقرطبة ترافق مع انتقال بني يفرن من المذهب الاباضي الى المذهب المالكي السني مثلما أشار إليه ابن حزم بصفة متأخرة.

بعد استقرار الفاطميين بمصر تولت صنهاجة السيطرة على أغلب بلاد المغرب بالقوة خاصة ضد زناتة. وبهدف تأمين فضائها السياسي فقد قامت

---

(5)/ لدراسة الشعب والانوماستيا بالأندلس:

H.deFelipe(1997)etM.Ḥaqqî(2001).

ontmontrél'établissementsurceterritoiredeplusieurstribusberbèresconsidéréescommekhârijitesauiie/viiiesiècle(lesMiknâsa,lesHawwâra,lesZanâtaetlesBanûBirzâl).

بتحصين مراكزها الحساسة مثل أشير وتاهرت وقاموا بمجوعة من حملات التهدئة. لم يكن الزاب ليؤخذ على أنه فجوة ولم يترك ليعاني المصير السيء. في سنة 398هـ/1004م أسس الأمير حماد –مؤسس الأسرة الحمادية– عاصمته القلعة في وسط مجال بني برزال وعجيسة (Amara,2001:197-218). ويتعلق هذا الأمر بتأسيس أول دولة في مجال الزاب الذي كان إلى غاية هذه الفترة في غالبيته على المذهب الاباضي. إضافة إلى ذلك فقد وضع الأمير الناصر (454-482هـ/1062-1088م) أخاه خزار على نقاوس (Nicivibus في العصر القديم) لتسيير الأوراس من الداخل (ابن خلدون، دت: 173/6). يفسر سبب هذا الاختيار بإرادة الحماديين السيطرة على إباضية هوارة بالأوراس. في الزاب الشرقي القائد المحلي القوي صنديل اشتكى من سلطة الباديسيين بصبرة في سنة 415هـ/1024م. وتحت حكم الأمير الرابع بلكين (447-454هـ/1055-1062م) خضعت بسكرة وناحيتها للحماديين وتم تولية أمورها للعائلة المحلية القوية بنو رمان، وبعد ذلك نجح بنو جعفر وبنو سندي في تسيير المقاطعة (ابن خلدون، دت: 172/6).

إن انشاء هذه الشبكة من المدن أدى إلى استبدال سيطرة الجماعات القبلية على الإقليم. لقد وجدت الجماعات الاباضية نفسها في مواجهة وضعية جديدة وقاومت بشدة السياسة الضريبية والدينية القاسية المتبعة من قبل سلالتي صنهاجة المالكيتين. أورد البغطوي (2009: 31) مناظرة بين

أبي إسحاق الأشيري العالم المالكي الكبير من المغرب الأوسط والعالم الاباضي من جادو مما يشهد على الانتشار الهائل للمذهب المالكي. لقد كانت السلطة السياسية تحت ضغط الفقهاء المالكية خاصة السيوري (ت. 460هـ/1067م) الذي أصدر عدة فتاوى مشهورة فيها اعتبر الاباضيين إما مرتدين أو مشركين (البرزلي، 2002: 336/1). في فتوى فقهية أخرى يظهر مترددا قائلا أنه يمكن اعتبارهم "ملاعين" بسبب أنهم مسلمين لكنهم يرتكبون الكبائر (البرزلي، 2002: 295/3). لقد منع السيوري تزويجهم النساء السنيّات خوفا من تحولهن إلى مذهب أزواجهم. وفي فتوى فقهية متأخرة تجعلنا إجابته نلتمس أنه يعتبرهم مثل "المشركين" (البرزلي،2002: 317/2). وقد اعتبر أيضا الاباضيين مثل الكفار التفافا لإضفاء الشرعية على قضية إبادتهم.

تتحدث النصوص السنية وكذلك الاباضية-الوهبية عن الحملات المنفذة من قبل الحماديين والباديسيين بالجريد والزاب. يعود استئصال الجماعة الاباضية ببغاي إلى مؤسس الدولة الحمادية، هذا الأخير وضع النهاية لمزاتة في مدينة تامرينت التي انسحب منها السكان نحو واحات الصحراء مرافقين لقائدهم اسماعيل بن بشر بن ابراهيم بن ملال المزاتي (الدرجيني، 1974: 413/2). بالنسبة للباديسيين فقد ارتكبوا عدة مجازر ضد الاباضيين خاصة خلال سنة 429هـ/1037م متسببين في تهجير قسري للعديد من القرويين

(ابن الأثير، 1983: 9/460-461. النويري، 1983: 24/208). في سنة 440هـ/1048م دمر جنود الأمير المعز بن باديس القرية المحصنة بقلعة درجين والناجين من المجرزة توجهوا نحو الجنوب لتأسيس قرية أسوف "واد سوف" (الدرجيني، 1974: 407).

نقل ابن حزم القرطبي (ت 456هـ/1063م) شهادة أبي محمد بويكنى البرزالي إباضي من بني برزال مستقر بالأندلس تتحدث عن انتقال واسع للإباضية نحو المذهب السني في عدة تجمعات مثل بني مغراوة وبني يفرن في حين أن بني واسين وبني برزال استمروا في انتمائهم المذهبي (ابن حزم، 2001: 494).

في فترة متأخرة قليلا الصورة التي رسمها البكري التي بناها على جغرافية محمد بن يوسف الوراق وعلى معلومات شفوية يعطينا مؤشر حول وضعية الزاب بعد نصف قرن من السياسة التي مارستها صنهاجة المالكية. بعد أن أشار إلى الاباضية في جبل نفوسة وصف البكري أنه في الأوراس أقام أبي يزيد الشهير وأن مزاتة سكنت هذه الناحية. فيما يخص بسكرة فقد قال أن سكانها قد تحولوا نحو المالكية وأن ناحيتها آهلة ببربر سدراتة ومغراوة (البكري، 2003: 2/229-230). الجغرافي نفسه ذكر كذلك حضور بني برزال وعجيسة الإباضيين في الجبال الواقعة شمال المسيلة وهوارة ذات المذهب نفسه في الغدير. حضور اباضي كذلك مثلته هوارة ومكناسة تمت الاشارة إليه

في واحدة من الحصون الثلاثة لبنطيوس وفي جنوب تهودة (البكري، 2003: 254/2-255). يظهر أن المعطيات التي قدمها البكري تتعلق بقرن سابق بسبب كونها لا تلمح إلى الحضور الهلالي بالمنطقة. إذن معلوماته تعود إلى القرن 4هـ/10م وهي الفترة التي عاش فيها الوراق مصدره الرئيسي. وجب علينا أن نعود إلى المصادر الاباضية الوهبية للحصول على معلومات أكثر حول تأثير السياسة المتبعة من قبل صنهاجة. انطلاقا من النصف الثاني من القرن 5هـ/11م كل الروايات نقلها مؤلفون كان لهم نشاط أو تنقل بجنوب الزاب خاصة في القرية المحصنة الآهلة من قبل بني واسين الذين كانوا في علاقة مباشرة مع واحدة من المنازل الإباضية الأخرى، مثل أسوف في غالبيتها آهلة بـ لواتة (الفرسطائي، 2009: 599/2). إن الرواية التراجمية لهذه الناحية التي جمعها أبو الربيع الوسياني (2009: 350/1-358) تسمح بملاحظة أن التجمعات الاباضية لهذه الناحية واجهت ثلاثة تهديدات، الأول كان من مغراوة التي أصبحت تحت توجيه قائدها زيري بن محصن معادية للإباضية بعد إجبارهم على التنازل على مذهبهم والهجومات المستمرة على جماعاتهم. التهديد الثاني جاء من الحماديين الذي وجهوا حملات في هذه النواحي لفرض سلطتهم. بينما التهديد الثالث فقد تمثل في الهلاليين الذين قاموا بغزو القصور.

أورد أبو الربيع الوسياني (2009: 413/1-414) الشهادة الوحيدة

على استمرارية الاباضية النكار بالأوراس خلال القرن 5هـ/11م، يتعلق الأمر بمراسلة بين عالم نكاري وعالم وهبي من آجلو. إن الاباضية طيلة هذه الفترة كذلك انتشرت في جنوب الزاب وخصوصا في قلعة بني واسين، وقد كان للعالم الاباضي الوهبي أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت. 471هـ/1078م) تلاميذ كثر في هذه الناحية (الوسياني، 2009: 448).

التغيير العميق للنسيج الاجتماعي والزوال التدريجي للإباضية.

عرف الزاب حضورا هلاليا ملحوظا انطلاقا من منتصف القرن 5هـ/11م. إذا كانت الإشارات حول هذه الناحية قليلة فإنه يظهر في المصادر المكتوبة أن النسيج الاجتماعي لهذه الناحية قد عرف تغيرا عميقا وطويلا. تعتبر جغرافية الإدريسي (ألفها في سنة 548هـ/1153م) أقدم شهادة عن هذه الوضعية الجديدة، فهي كذلك تشير إلى امتلاك العرب لأراضي تابعة لقرى الزاب مثل بادس وحصن بشر (الإدريسي، 1989: 264/1-270). لم يشر الإدريسي إلى البربر سوى في ضواحي بغاي ولم يذكر الاباضية إلا في حديثه عن ورقلة (الإدريسي، 1989: 276/1، 296). هذه الخريطة الجديدة تؤكدها النصوص القليلة التي نمتلكها حول الزاب في القرون اللاحقة. لقد لاحظ التيجاني (2005: 125، 128، 186)، في رحلته التي قام بها سنوات 706-708هـ/1306-1308م، أن الاباضية يسكنون الجريد وجبال بجاية وقسنطينة في حين أن شهادته حول

الجريد وجربة وزوارة كانت قائمة على ملاحظة مباشرة، تبقى المعلومات التي أوردها حول الحضور الاباضي في جبال قسنطينة وبجاية تحتاج إلى إعادة النظر فيها. إن روايته تكشف لنا في المقابل أهمية الزوايا الريفية في التحول نحو المالكية (التجاني، 2005: 190). فيما يتعلق بالزاب يعتبر مثل الجريد كإقطاع الذئاب الهلالية في الملعبة وهي قصيدة كتبها الكفيف الزرهوني (1989: 62) لوصف حملة السلطان المريني أبي الحسن (731-752هـ/1331-1351م). مرافقا للسلطان المريني أبي عنان (749-759هـ/1349-1359م) وفي رحلته بالزاب خلال سنة 758هـ/1356م قدم لنا ابن الحاج النميري معلومات مهمة حول وضعية هذه المنطقة في منتصف القرن 8هـ/14م. في رحلته فيض العباب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ذكر وجود اختراق هلالي للزاب غيّر كلية هذه الناحية حيث عوضت القرى المحصنة (قصور) المدن القديمة للسيطرة على المجال على شاكلة القصر الذي بناه عثمان بن علي بن الرياحي أو ذلك الذي بناه أخوه سليمان على أنقاض لامباز القديمة (حول عرض للقصور الهلالية بالأوراس والحضنة الغربية: حسن: 2003، 42-45، Meouak, 2008:121-123). يبرز لنا الوصف الجغرافي فضاء خاضع لسيطرة شيوخ قبيلة رياح، كما أصبحت إذن بسكرة عاصمة للزاب وتخضع لسيطرة بني مزني وهم هلاليين كذلك (ابن الحاج، 1990: 422-435). لم يذكر البربر هنا إلا إشارة إلى لواتة التي تعرضت للاستعباد وعملت لحساب

المهيمنين الجدد، قبيلة رياح (ابن الحاج، 1990: 415). لم يكن اغتصاب القبائل الهلالية لأراضي البربر بالزاب استثناء فالعديد من الفتاوى التي أوردها السيوري تبيّن مصادرة المجالات الزراعية من قبل الهلاليين بعد قتل أو استعباد البربر (الونشريسي، 1981: 593/9).

يكمّل ابن خلدون (ت. 808هـ/1406م) -الذي أمضى تقريبا ستة سنوات ببسكرة- المعلومات التي أوردها ابن الحاج النميري، وتؤكد خاصة هيمنة رياح على الزاب وتشكيل شبكة حضرية جديدة انطلاقا من المدن الواحية والقصور المؤسسة حديثا بعد تشرد زناتة ومكناسة. كتب ابن خلدون كذلك أن الهلاليين: "هيمنوا على قرى الزاب والمغرب الأوسط بسبب أن زناتة لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها" (ابن خلدون: 19/4). إن الحضور الهلالي في إقليم الزاب لم يفرغ بشريا كل المدن والقرى المحصنة لكن سكانها تحولوا إلى قبيلة تابعة للأسياد الجدد. مع ذلك نلاحظ وجود إعادة تشكيل للفضاء: أولاد، وطن، أحياء أصبحت مصطلحات لتوزيع قبلي واسع هيمنت عليه مختلف فروع رياح خاصة الدواودة (ابن مرزوق، 2008: 306. ابن خلدون، 2009: 122. عمارة، 2009: 24).

في الجدول الذي يتضمن قبائل البربر وظف ابن خلدون فكرة الجيل فيما يتعلق بالبربر الذين احتضنوا ذات يوم الاباضية ثم الصفرية لكنهم في زمن المؤلف أصبحوا سنيّين ويدمجون كذلك ضمن الجيل الثاني. إن التجمعات

البربرية المختلفة المعنية بهذا التحليل هي هوارة، لواتة، لماية، بني يفرن، بني مغراوة، بني برزال، وعجيسة. بالنسبة للأوائل كتب ابن خلدون (141/6-142) أنهم مارسوا البداوة في زمنه في الناحية الممتدة بين مرماجنة وبجاية وأنهم جاوروا بني سليم. وبعد خضوعهم للاستعباد فقد تأثروا بأسلوب حياة القبائل العربية. كذلك فإن جماعة عجيسة في الجبال المطلّة على مدينة المسيلة تعرضت للاستعباد وتم استبدالها بـ عياض (ابن خلدون: 145/6). بالنسبة لزناتة فروعها الرئيسيّة مثل بني يفرن، بني مغراوة، وبني برزال فقد تخلوا في أغلبهم عن الزاب وقرروا الانتقال إلى جنوب تلمسان وإلى المغرب الأقصى وكذلك في واحات الصحراء. ومن بقي بالزاب أصبح تابعا للهلاليين (ابن خلدون: 7/7-8). لم يحدد ابن خلدون في فترته أي رابط بين الاباضية وزناتة وقد أكد أن زناتة اعتمدت المذهب المالكي. من بين كل زناتة الزاب بني سنجاس وحدهم من بقي على المذهب الاباضي في زمن ابن خلدون (47/7). نظرا للوضعية الحالية لمعارفنا فمن الصعب تحديد موقع هذه الجماعة الصغيرة، ومن من المحتمل أن تكون مستقرة بجنوب الزاب قريبا من تقرت أين نجد بربر ريغة لا يزالون إباضية وهبية ونكّار خلال القرن 8هـ/14م (ابن خلدون، 48/7) في النهاية بني برزال هجروا كلية الجبل الواقع شمال قلعة بني حماد تبعا للضغوط الفاطمية ونزحوا جماعيا نحو الأندلس (ابن خلدون، 53/7).

لقد تسبب وصول الهلاليين في حركة هجرة نحو الغرب والجنوب –ابن خلدون (7: 51) وقد ذكر خاصة تأسيس زناتة لعدة قرى محصنة في ورقلة– إن فكرة الاقتلاع الكلي للجماعات البربرية تحتاج إلى إعادة نظر. يبدو أن القادمين الجدد أصبحوا أسيادا للسهول والهضاب وقاموا بتقليص الجماعات البربرية الموجودة عن طريق الاستعباد أو عبر الإلحاق السكاني. لكن في الجبال حافظت التجمعات البربرية على سيطرتها على المجال على شاكلة هوارة في الأوراس التي كانت هدف غزوة السلطان الحفصي أبي إسحاق في سنة 648هـ/1250م (ابن الشماع، 1984: 76).

خلاصة: تأملات حول أسباب زوال الإباضية من الزاب.

في أي فترة بالضبط وبأي عملية انتقلت الجماعات بالزاب من المذهب الإباضي إلى المذهب المالكي؟ للأسف فإن المؤشرات ضعيفة للإجابة عن هذا السؤال. في دراسته حول الصحراء الليبية رفض جاك تيري (1995:233) الأطروحة الهلالية واعتقد أن زوال الاباضية من الواحات الليبية يعود إلى: "...زوال طويل وتدريجي للمذهب بسبب وجود تقارب بين الكتلة المالكية عرب–بربر وقد استطاعوا توفير الحماية بفضل تركيباتهم السياسية بينما الجماعات الاباضية لم تكن قوية لتوفيرها بعد سقوط تاهرت". من جهتها فسرت ف. بريفو (V. Prévost)(2008: 307-318) زوال الاباضية بالجريد التونسي بعدة عوامل مثل الحروب بين الموحدين وبني غانية الميورقيين،

التنافس بين الوهبية والنكارية، ظهور الحركات الصوفية، انتشار المذهب المالكي مدعما بالقضاة، وكذلك انعزال الجماعات الاباضية. بالنسبة للزاب فإن الصراع الداخلي بين الاتجاهات المختلفة للاباضية لعب دور كبير في تراجع هذا التيار الإسلامي، إذ لم تستطع تحقيق التوازن في هذه الناحية بسبب كون غالبيتها تعود إلى اتجاه واحد، الاتجاه النكاري. إن الفرضية التي طرحها جاك تيري معقولة ولدينا مثال للعديد من الاباضيين الذي دخلوا في خدمة قوات الأُسر السنية الحاكمة مثل إبراهيم بن واموي المزاتي الذي أصبح واحدا من قادة جيش الأمير المعز (أبو العباس الفرسطائي، 2009: 572/2). هؤلاء الاباضيين أصبحوا بعد ذلك مستبعدين من أصحاب مذهبهم. ومثلما أشارت إليه ف. بريفو، ظهور شبكة صوفية سنية مارست تدريجيا نشر المذهب المالكي بين السكان. كذلك تحدث ابن الطواح التونسي (1995: 52) عن انتشار الصوفية في النواحي ذات الأغلبية الاباضية بفضل التعليم الذي وجهه في بجاية القطب الكبير أبي مدين إلى أشخاص كثر من هذه النواحي خاصة حسن بن محمد بن عمران النفطي (ت. 621هـ/1224م) أبو يوسف الدهماني (ت. 621هـ/1224م) وطاهر المزوغي (ت. 646هـ/1248م). هذا الأخير استقر بعد ذلك في واحة أسوف المركز الرئيسي للاباضية جنوب الزاب. في دراسته التي أعدها حول الوَلاية في داخل إفريقية بيّن صالح علواني (2010: 144-156) الدور الذي لعبه قاسم بن مرا تلميذ الدهماني وسعادة الرحماني في نشر الأفكار

الصوفية السنية في الوسط القبلي. بالنسبة للزاب فقد مثل سعادة الرحماني وهو من رياح أصل الحركة التي حولت هذه الناحية إلى التصوف السني. بينما ارتبطت بسكرة بالشبكات الفقهية وظهورها في الجهاز الفقهي المالكي في نهاية العصر الوسيط (ابن خنتاش المسيلي، 2011: 73-74) سجل الزوال التام لاباضية الزاب. تحدثت كتب التراجم المالكية كذلك عن صدى الحراك الجغرافي لفقهاء أصلهم من الزاب مثل أبي العباس أحمد النقاوسي ولد في نقاوس بالأوراس ومؤلف للعديد من كتب الفقه المالكي (أحمد بابا التنبكتي، 2000: 1/91-92). لقد أحدث استقرار قبائل رياح بالزاب تغييرا هاما في النسيج الاجتماعي مما أدى إلى تضعضع الجماعات البربرية التي فقدت سيطرتها على الغالبية العظمى من المجالات.

السندات البيبليوغرافية:

المصادر:

- عبد الله بن بلكين، 1995، كتاب التبيان، تح. أمين توفيق الطيبي، الرباط، عكاظ.
- النويري، 1983، نهاية الأرب في فنون الأدب، نشر. حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، القاهرة، الحياة المصرية، مج.24.
- البغطوري، 2009، سيرة مشائخ نفوسة، نشر. توفيق عباد الشقروني، ليبيا، مؤسسة توالت.
- البكري،2003، المسالك والممالك، نشر. جمال طلبة، بيروت، دار الكتب

العلمية، مج.2.

- البرزلي،2002، جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، نشر، محمد الحبيب الهيلة، بيروتن دار الغرب الإسلامي، 7مج.
- الدرجيني، 1974، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، نشر. ارباهيم طلاي، قسنطينة، دار البعث، 2مج.
- الفرسطائي أبو العباس أحمد، 2009، السير، تح. سليمان بوعصبانة، مجموعة سير الوسياني، مسقط، وزارة التراث، 3مج.
- ابن عذاري المراكشي، 1980، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. ايفاريست بروفنصال وجورج.س. كولن، بيروت، دار الثقافة، 2مج.
- ابن الحاج النميري، 1990، فيض العباب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح. محمد بن شقرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- ابن الأثير، 1983، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية، مج.9.
- ابن الهيثم، 2001، كتاب المناظرات، تح. وتر. ويلفردمادلونغ وبول وولكر، The Advent of the Fatimids: A Contemporary Shi'I Witness Volume editor: Paul E. Walker, Wilferd Madelung, Translated by: Paul E. Walker, Wilferd Madelung
- ابن الخطيب، 1964، كتاب أعمال الأعلامن تح. أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، الدار البيضاء.
- ابن الصغير، 1984، أخبار الأئمة الرستميين، تح. محمد ناصر وإبراهيم بحاز، الجزائر، المطبوعات الجميلة.
- ابن الشماع، 1984، الأدلة البينة النورانيةفي مفاخر الدولة الحفصية، تح. محمد طاهر المعمري، تونس، الدار العربية للكتاب.

- ابن الطواح، 1995، سبك المقال في فك العقال، تح. محمد مسعود جبران، بيروتن دار الغرب الإسلامي.
- ابن حماد الصنهاجي، 1984، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح. جلال أحمد البدوي، الجزائر، م.و.ن.ت.
- ابن حوقل، 1996، كتاب صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة.
- ابن حيان، 1979، المقتبس في خبر بلد الأندلس، تح. بيدرو شالمتا، الرباط، كلية الآداب.
- ابن حزم، 2001، جمهرة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون، 2009، الرحلة، تح. محمد بن تاويتالطنجي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- نفسه، العبر، بيروت، مؤسسة جمال، مج 6-7.
- ابن خنتاش المسيلي، 2011، نهاية المرام في تيسير مطالعة الأحكام، تح. أحمد بن علي، بيروت، دار ابن حزم.
- ابن خرداذبة، 1886، المسالك والممالك، ليد، بريل.
- ابن مرزوق، 2008، الديوان، تح. سلوى الزهيري، المناقب المرزوقية، الرباط، وزارة الأوقاف.
- ابن سلام، 1985، بدء الإسلام وشرائع الدين، تح. فيرنر شفارتز وسالم بن يعقوب، بيروت، دار إقرأ.
- إدريس عماد الدين، 1981، عيون الأخبار وفنون الآثار، تح. فرحات الدشراوي، تونس، الاتحاد العام التونسي للشغل.
- الكفيف الزرهوني، 1987، الملعبة، تح. محمد بن شريفة، الرباط، المطبعة الملكية.

- مفاخر البربر، 2005، تح. عبد القادر بوباية، الرباط، دار أبي رقراق.
- المقدسي، 1996، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، دار صادر.
- القاضي النعمان 1986، كتاب افتتاح الدعوة، تح. فرحات الدشرواي، تونس، ش.ت.ت، الجزائر، د.م.ج.
- الشماخي، 1883، كتاب السير، قسنطينة.
- التيجاني، 2005،الرحلة، تح. حسان حسني عبد الوهاب، تونس، الدار العربية للكتاب.
- التنبكتي أحمد بابا، 2000، كفاية المحتاجلمعرفة من ليس في الديباج، تح. محمد مطيع، الرباط، وزراة الأوقاف، 2مج.
- الونشريسي، 1968، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلسوالمغرب، تح. محمد حجي وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، مج9.
- الوسياني أبو الربيع، 2009، السير، تح. سليمان بوعصبانة، مجموعة سير الوسياني، مسقط، وزراة التراث، 2مج.
- اليعقوبي، 1992، كتاب البلدان، تح. ميشال جان دوڤوج، نشر، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية الاسلامية.

الدراسات:

ALOUANI Salah, 2010, *Tribus et marabouts. A'râb et walâya dans l'intérieur de l'Ifrîqiya entre le VI^e/XII^e et le XII^e/XVIII^e siècles*, Helsinki, Academia scientiarum fennica, 307 p.

AMARA Allaoua, 2001, « La Qal'a des Banî Ḥammâd, l'histoire d'un déclin », *Archéologie Islamique* 11,

Lyon, p. 97-118.

—, 2008, « Remarques sur le recueil ibâḍite-wahbite siyar al-mašâ’iḫ : remarques sur son attribution », *Al-Andalus-Magreb* 15, Cadix, p. 31-40.

ـ، 2009، "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"، مجلة الآداب والعلوم الانسانية 10، قسنطينة، ص. 9-25.

بحاز إبراهيم، 1993، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والفكرية، القرارة، جمعية التراث، 475ص.

- BIROT Pierre et DRESCH Jean, 1953, *La Méditerranée et le Moyen-Orient*, vol. I, *La Méditerranée occidentale physique et humaine*, Paris, PUF, 552 p.
- BORRUT Antoine, 2011, « La fabrique de l’histoire et de la tradition islamiques », *REMMM*, 129, Aix-en-Provence, p. 17-30.
- BULLIET W. Richard, 1981, « Botr et Beranès : hypothèses sur l’histoire des Berbères », *Annales, histoire, sciences sociales* 36, Paris, p. 104-116.
- CAMBUZAT Paul-Louis, 1986, *L’évolution des cités du Tell en Ifrîqiya du VII^{e} au XI^{e} siècle*, Alger, OPU, 2 vol. 227+275 p.
- DE FELIPE Helena, 1997, *Identidad y onomástica de los Beréberes de al-Andalus*, Madrid, CSIC, 446 p.
- DECRET François et FANTAR Mhamed, *L’Afrique*

du Nord dans l'Antiquité, des origines au Ve siècle, Paris, Payot, 1981, 393 p.
- GAUTIER Emile Félix, *L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot, 1927, 432 p.
- GOUJA Moncef, 2003, *Aux origines de la pensée arabe*, Paris, Transbordeurs, 212 p.
- HALM Heinz, 1996, *The Empire of the Mahdi. The Rise of the Fatimids*, Leyde, Brill, 452 p.
- حقي محمد، 2001، البربر في الأندلس، دراسة لتاريخ مجموعة اثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية، الدار البيضاء، المدارس، 342ص.
- حسن محمد، 2003، الجغرافية التاريخية لافريقية، بيروت، دار الكتاب الجديد، 312ص.

KHELIFA Abderrahmane, 2009, « Les Aurès au moment de la conquête musulmane », *L'Aurès antique*, Kenchela, Centre universitaire, p. 197-217.

LEWICKI Tadeusz, 1957, « La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen Âge », *Rocznik Orientaliostyczny* XXI, Cracovie, p. 301-343

—, 1958a, *Les Ibaḍites en Tunisie au Moyen Âge*, Rome, Bibliothèque de l'Académie polonaise de Rome, 16 p.

—, 1958b, « Les subdivisions de l'Ibâḍiyya », *Studia Islamica* IX, Paris, p. 71-82.

—, 1968, « Un royaume ibâḍite peu connu : l'État des Banû Masâla », *Rocznik Orientaliostyczny* XXXI, Cracovie, p. 7-15.

—, 1978-1983, *Études maghrébines et soudanaises*, Varsovie, Éditions scientifiques de Pologne, 2 vol., 94+99 p.

- مزهودي مسعود، 2003، جبل نفوسة من انتشار الاسلام حتى هجرة بني هلال إلى المغرب (21-422هـ/642-1053م)، ليبيا، مؤسسة تاوالت، 315 ص.

MEOUAK Mohamed, 2008, « Le Hodna occidental entre régions méditerranéennes et plaines désertiques : organisation des terroirs, communautés rurales et productions agricoles au Moyen Âge », *REMMM* 126, Aix-en-Provence, p. 117-139.

- MODERAN Yves, 2003, *Les Maures et l'Afrique romaine IV^e –VII^e siècle*, Rome, École française de Rome, 900 p.
- معجم المصطلحات الاباضية، 2008، مسقط، وزارة الأوقاف والشؤون الاجتماعية، 2 مج، 1291ص.
- PREVOST Virginie, 2006a, « La révolte de Bâġâya (358/969) : le dernier soulèvement des ibâḍites maghrébins », *Journal of Near Eastern Studies*, 65-3, Chicago, p. 197-206.
- —, 2006b, « Une minorité religieuse vue par les géographes arabes : les Ibâḍites du sud tunisien », *Acta Orientalia* 59, Budapest, p. 193-204.
- **—,** 2007, « L'influence de l'État rustumide dans

le Sud tunisien »,*Acta Orientalia* 68,Oslo, p. 113-133.

- **—,** 2008, *L'aventure ibâḍite dans le Sud tunisien. Effervescence d'une région méconnue*, Helsinki, Academia scientiarum Fennica, 480 p.
- REBSTOCK Ulrich, 1983**,** *Die Ibâḍiten im Maġrib (2./8. – 4./10. Jh.). Die Geschichte einer Berberbewegung im Gewand des Islam*, Berlin, Klaus Schwarz Verlag, 366 p.
- SAVAGE Elizabeth, 1997, *A Gateway to Hell, A Gateway to Paradise : The North African Response to the Arab Conquest*, Princeton, New York, The Darwin Press, 206 p.
- SCHWARTZ Werner, 1983, *Die Anfänge der Ibaditen in Nordafrika : der Beit einer islamischen Minderheit zur Ausbreitung des Islam*, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 349 p.
- TALBI Mohamed, 1982, « La conversion des Berbères au ẖariğisme ibaḍito-ṣufrite et la nouvelle carte politique du Maghreb au IIe/VIIIe siècle », *Études d'histoire ifriqienne et de civilisation musulmane médiévale*, Tunis, Publications de l'université de Tunis, p. 13-80.
- THIRY Jacques, 1995, *Le Sahara lybien dans l'Afrique du Nord médiévale*, Leuven, Peeters, 604 p.
- ZEROUKI Brahim, 1987, *L'Imamat de Tahart, premier État musulman du Maghreb (144-296 de l'hégire)*, Paris, l'Harmattan, 224 p.